مشارب القوم

للأستاذ السيد محمد عبد الشافعي

سالكوا طريق الحق سبحانه وتعالى طالبوا الدخول فى حضرته والأنس به ينقسمون إلى أقسام أربعة: إلى عباد . وزهاد . وعارفين . ومحققين . فالزهاد والعباد سلكوا إلى الله تعالى من طريق الزهد والمجاهدة . قال تعالى (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا) والعارفون والمحققون سلكوا إلى الله تعالى عن طريق العلم والمعرفة ، قال تعالى (سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق) العباد والزهاد سلكوا إلى الله تعالى من طريق الزهد فى الأشياء ، لأنهم نظروا إلى ظاهرها وظاهرها غره . والعارفون والمحققون سلكوا إلى الله تعالى من طريق العلم والمعرفة ، لأنهم نظروا إلى باطن الأشياء وباطنها عبرة - أما دليل عبرتها فقوله تعالى (زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) وقوله تعالى (إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا) وقوله تعالى (فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) وأما دليل عبرتها: فقوله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك) وقوله تعالى (قل انظروا ماذا فى السموات والأرض) فلما أن نظر الزهاد والعباد إلى ظاهر الأشياء وما فيها من الفتن وكانو على يقين من صحة الإخبار الإلهى استوحشوا منها ، وأعرضوا عنها ، لأنهم لا يرون فيها جمالا يؤنس به ، ولا كمالا لا يقفون معه ، ومن ثم حملهم الحال على العزلة طلباً للأنس بربهم فى خلواتهم فطال

بهم الأمر ، فلقبوا بالزهاد والعباد ، لأن من أكثر من شيء عرف به . والزهد هو انصراف الرغبة عن شيء إلى ما هو خير منه . ويستلزم مزهوداً فيه ومرغوباً فيه . فكل من ترك شيئا لشيء يعتقد أنه خير منه فحاله بالإضافة إلى الأول يقال له زهد . وحاله بالإضافة إلى الثاني يقال له رغبة وحب . فمن ترك الدنيا للآخرة فهو زاهد ، ومن ترك الآخرة للدنيا فهو زاهد ، إلا أن العادة جارية بتخصيص اسم الزهد على من زهد في الدنيا . كمثل الإلحاد يطلق على كل ميل في الوضع اللغوي . إلا أن العادة خصصته لمن مال عن الطريق الأقوم .

ثم للزهد مراتب ثلاث: المرتبة الأولى أن يزهد الإنسان في الدنيا وهو مشتهٍ لها بقلبه . وصاحب هذه المرتبة بين عاملين : إذ نظر إلى الدنيا وزينتها جذبه عامل زينتها إليه . وإذا نظر إلى الآخرة وقيمتها جذبه عامل النظر إلى حسن ثوابها إليه . ولتردده بين هذه العوامل كان على خطر عظيم ، لاحتمال ترجيح جانب زينتها على الآخرة ، وهذا في الحقيقة لا يقال له زاهد ، وإنما هو متزهد . أما المرتبة الثانية : فهي أن يزهد الإنسان في الدنيا بإرادته واختياره خائفاً من فتنتها ناظراً إلى ثواب الله تعالى في الآخرة ، تحققاً بقول ربه (ما عندكم ينفد وما عند الله باق) فيكون مثله كمثل من ترك شيئاً خسيساً لينال بتركه شيئاً عظيماً . وصاحب هذه المرتبة وإن كان أرقى من الأول لاطمئنان قلبه في زهده إلا أنه مشاهد للزهد ، وربما أوقعته هذه المشاهدة في الاغترار بحاله وامتن على الحق بزهده ، مالم يدركه الحق بعنايته أما الدرجة الثالثة : فهي أن يزهد الإنسان في كل ماسوى الله ، من دنيا أو آخرة ثم يزهد في زهده ، فلا يرى أنه ترك شيئاً لينال ما هو خير منه ، فيكون كتاجر ترك درهماً ليأخذ درهمين بعد قليل ، بل يرى أن نعيم الدنيا والآخرة بالنسبة إلى نعيم الأنس بالله في الدنيا ، ولذة النظر إلى وجهه في الآخرة لا قيمة له أصلا . فيكون مثله كمثل من أراد الدخول إلى حضرة الملك فمنعه كلب واقف على باب قصره فرمى له بلقمة فانشغل الكلب بها ، وتمكن هو من الدخول في الحضرة ، وأخذ حظه من الأنس والمشاهدة ، ثم شغله الأنس بالملك عن كل ما سواه . وهذه الدرجة هي أقصى غايات الزهد ، ومنتهى همة الزاهدين

البقية على صفحة ٦٧